من مجيء الخبر على خلاف ظاهر الحال في القرآن الكريم

د. عبده عبد العزيز قلقيلة

الخبر قسيم الإنشاء، لا يخرج الكلام عنهما، وإذا كان السكاكي قد نص على أن المعتنين بهما فرقتان: فرقة تحوجهما إلى التعريف، وفرقة تغنيهما عنه، واختار رأي الفرقة الثانية[1] فإننا على الرغم من تأخر الزمن بنا عن عصر السكاكي، بل لتأخر الزمن بنا عن عصر السكاكي نرى العكس، وننحاز إلى الفرقة التي تجعل تعريفهما مدخلاً لفهمهما وتمييزاً لأحدهما عن الآخر، وتأتي الأمثلة فتعمق هذا التمييز وذلك الفهم، وانطلاقاً من ذلك نقول: الخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته أي لذات الخبر في نفسه وبصرف النظر عن قائله؛ لتدخل فيه الأخبار المقطوع بصدقها أو بكذبها، منظوراً في هذا القطع إلى ذوات قائليها أو إلى مضامينها.

والخبر الصادق هو ما طابق الواقع أو هو ما صدَّقه الواقع.
أما الخبر الكاذب فهو ما خالف الواقع أو هو ما كذَّبه الواقع.

من هاتف كليته يخبر زميل زميله بنجاحه وبهنئه به ويأتي الزميل ليرى بنفسه، فإذا وجد اسمه في كشوف الناجحين كان كلام زميله صدقاً، وكانت تهنئته صادقة، وإذا لم يجد اسمه في كشوف الناجحين كان كلام زميله كذباً وكانت تهنئته مخرقة.

مضمون كلام الزميل هو النسبة الكلامية، وما في الكشوف هو النسبة الخارجية، ومدار الصدق والكذب فيهما على توافقهما أو تخالفهما.

• أضرب الخبر •

الأضرب ـ بالضاد، ويمكن أن تكون بالدال ـ جمع ضرب أو درب، ومعناهما الاصطلاحي واحد، فضرب الخبر أو دربه إنما هو نمط أسلوبه ونسيجه اللغوي، هل هو مرسل أو مؤكد؟ وهل جاء على حسب مقتضى ظاهر حال المخاطب به أو على خلافه؟

وما ذكرناه معناه أن لأضرب الخبر مجالين مختلفين:

مجالاً تجري فيه هذه الأضرب وفقاً لظاهر حال المخاطب من حيث علمه أو عدم علمه بمضمون الخبر، ومن حيث قبوله أو رفضه لهذا المضمون، بل من حيث درجة هذا الرفض إن كان ثمة رفض.

ومجالاً تجري فيه الأضرب طبقاً لاعتبارات بعيدة عن ظاهر حال المخاطب، أي عن ظروفه من علم أو جهل بمضمون الخبر، ومن قبول أو رفض لهذا المضمون، والاعتبارات في هذا المجال أكثر دقة من الاعتبارات في المجال الأول؛ لأنها لا تطفو فوق السطح كما هناك، بل تكمن في العمق وهو عمق مزدوج:

شقة الأول مرسل الأدب بفنيته وبرؤيته الجمالية.

وشقة الثاني مستقبل الأدب بما يحيط به ويكتنفه من ظروف دقيقة يصعب على غير البليغ فهمها والصدور في كلامه عنها.

والمجال الثاني باعتباراته المزدوجة العمق أدخل في فن القول من المجال الأول، ولا عجب؛ فالراحة على قدر التعب، وعند الصباح يحمد القوم السري.

• المجال الأول •

أضرب الخبر في هذا المجال ثلاثة هي:

١ ـ الابتدائي:

وهو يتحقق بإلقاء الخبر غير مؤكد على خالي الذهن من مضمونه ليحصل له هذا المضمون

وينتقش في ذهنه ثبوتاً أو انتفاءً.

تقول لشريكك الذي يقاسمك غرفتك في أحد النزل: أنا مسافر غداً، أو لست مسافراً غداً، مستغنياً عن أن تؤكد له كلامك بأي مؤكد؛ لأن غرضك من كلامك إنما هو إفادة شريكك القرار الذي اتخذته، وهذا الغرض قد تحقق كاملاً بما قلته، فإذا زدت عليه كانت هذه الزيادة لغواً، وقد تمثل السكاكي في هذا الضرب وله بقول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى وصادف قلبا خاليا فتمكنا

وسمي ابتدائياً لمطابقته ابتداء حال المخاطب وهو خلوُّ ذهنه من مضمون الخبر.

٢ ـ الطلبي:

وهو يتحقق إذا كان المخاطب بالخبر متردداً في تصديق مضمونه، وحالة المخاطب هذه تستدعي تأكيد الخبر له بقدر الحاجة إلى هذا التأكيد. وقد رأى البلاغيون أن مؤكداً واحداً يكفي في هذه الحالة، وصدوراً عن ذلك نقول لمن أجاب إجابة متوسطة تجعله يقف على الأعراف بين النجاح والرسوب:

قد نجحت أو قد رسبت. هكذا بمؤكد واحد؛ لأننا لو أخلينا الخبر من هذا المؤكد كنا مقصرين في حق المخاطب بتركه لشكه، ولو عكسنا فضاعفنا المؤكد كنا متجاوزين حد الحاجة في الكلام البليغ.

وإنما سمي هذا الضرب طلبياً، لأن المخاطب بشكه في مضمون الخبر، غدا وكأنه يطلب بلسان الحال لا بلسان المقال تأكيد هذا المضمون.

٣ ـ الإنكاري:

وهو يتحقق إذا كان المخاطب منكراً مضمون الخبر، وينبغي في هذه الحالة أن نؤكد له الخبر على قدر إنكاره:

فإن كان إنكاره متوسطاً أكدنا له الخبر بمؤكدين، وإن كان إنكاره فوق المتوسط أكدنا له الخبر بثلاثة، وإن كان إنكاره شديداً أكدنا له الخبر بأربعة مؤكدات وربما أكثر.

لتتصور طالباً أجاب عن سؤال واحد من أربعة أسئلة.

إنه في هذه الحالة ينكر إخباره بنجاحه، لكن الواقع أنه نجح بإضافة أعمال السنة وبالرأفة، ولنقنعه

بنجاحه يلزم ـ بلاغة ـ أن نقول له: إنك قد نجحت؛ فإن صدقنا وإلا زدنا مؤكداً ثالثاً فقلنا: والله إنك قد نجحت أو لقد والله نجحت وهكذا.

وبسبيل من ذلك قول الله تعالى: «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا: إنا إليكم مرسلون، قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[٢].

في الإخبار الأول، أكد الله سبحانه وتعالى الخبر بثلاثة مؤكدات هي: إنّ، واسمية الجملة والقصر بتقديم ما حقه التأخير في «إليكم مرسلون»، فقد قدم متعلق الاسم المشتق عليه، وأصل الكلام: إنا مرسلون إليكم.

وفي الإخبار الثاني زاد الله سبحانه وتعالى على ما سبق مؤكدين آخرين هما القسم واللام.

والعلة واضحة في تسمية هذا الضرب بالإنكاري؛ فالمخاطبون به منكرون مضمونه على تفاوت بينهم في درجة هذا الإنكار، يقول السكاكي بعد أن أجمل ثلاثة الأضرب السابقة:

«وإخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة يُسمى إخراج مقتضى الظاهر، وإذا أعملت فيه البصيرة استوثقت من جواب أبي العباس للكندي حين سأله قائلاً:

إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله لقائم، والمعنى واحد.

وذلك أن قال: بل المعاني مختلفة: فقولهم: عبدالله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبدالله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبدالله لقائم، جواب عن إنكار منكر[٣].

انتهى القول في المجال الأول، والخبر فيه جار على مقتضى الحال ومقتضى الظاهر معاً، أما أنه جار على مقتضى الحال، فلتنوعه وتوزعه على الحالات المتباينة للمخاطبين به، وأما أنه جار على مقتضى الظاهر، فلكونه المتبادر إلى الذهن والمناسب للموقف الكلامي بطرفيْه: مرسل الأدب ومستقبله.

* * *

ويحسن التنبيه إلى أن تردد الجمل الخبرية بين التوكيد وعدمه تردد فني جمالي؛ لأن قاعدته فنية جمالية، أقصى مدّها هو: (ينبغي) و(يحسن) ونحوهما، أما (يجب) و(يلزم) و(لا بد) ونحوها، فهذه

وأمثالها لا تكون إلا مع ما نصدر فيه عن القاعدة العلمية، وهي ملزمة؛ لأنها لصحة التركيب وسلامته من الخطأ.

يقول حازم في مثل ما نحن بصدده: «وكلامنا ليس واجباً على الشاعر لزومه، بل مؤثر حيث يمكن ذلك»(٤).

وفي باب الفصل والوصل من كتاب «عروس الأفراح» نقرأ قول السبكي: «حيث قلنا في هذا الباب: يجب الوصل أو قلنا: يجب الفصل، نريد به الوجوب بحسب البلاغة وتطبيق الكلام على مقتضى الحال، ولا نعني الوجوب بحسب اللغة»(٥).

• المجال الثاني •

سبق القول بأن أضرب هذا المجال هي الأبلغ، ها هوذا السكاكي يمهد لها بقوله: «ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيراً» أجل «لا على مقتضى الظاهر كثيراً» ولا عجب؛ فهم مفلقون سحرة «يرون سلوك هذا الأسلوب من كمال البلاغة وإصابة المحز» كما قال(٦).

والاحتمالات العقلية لأضرب هذا المجال كثيرة منها:

١ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه فيلقي عليه الخبر خلواً من أي مؤكد مثل أن أقول للمسلم الذي يعلم بحكم إسلامه وجوب الصلاة لكنه لا يصلي: الصلاة واجبة.

ألقينا الخبر عليه والأصل أنه في غير حاجة إليه لعلمه المسبق به. هذا أولاً.

أما ثانياً: فقد جعلنا هذا الخبر خلواً من أي مؤكد تكريساً للحالة الجديدة التي حركناه إليها وهي اعتبار المخاطب به خالي الذهن من مضمونه أي جاهلاً هذا المضمون.

ومن هذا الضرب قول الفرزدق لهشام بن عبد الملك لما تجاهل عليَّ بن الحسين رضي الله عنهما وقال: مَنْ هذا؟ فقد تحدَّر الفرزدق بقوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

ولـيس قولك: من هـذا؟ بضـائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

إلى آخر ما قال[٧].

٢ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الشاك فيه، فيلقي إليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد، مثل أن أقول للمسلم الذي يعلم بحكم إسلامه وجوب الصلاة ولكنه لا يصلي: قد فرض الله الصلاة.

٣ ـ تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له، فيلقي عليه الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد مثل أن أقول للمخاطب السابق: إن الصلاة قد فرضها الله. أو والله إن الصلاة قد فرضها الله.

ومن هذا الضرب قول أبي نواس للتي من بيتها خفّ مركبه إلى مصر:

سألتْ: أما دون مصر للغنى متطلب؟

فأجاب: بلى. إن أسباب الغنى لكثير، مؤكداً بإن واللام واسمية الجملة.

٤ ـ تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة الشاك فيه فيلقي عليه الخبر مؤكداً بمؤكد واحد مثل أن أقول لمن لا يعلم عودة أخيه من سفره: قد عاد أخوك من السفر.

٥ ـ تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له كأن أقول لمخاطبي السابق: إن أخاك قد عاد من السفر. أو والله إن أخاك قد عاد من السفر.

٦ ـ تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه، فألقى عليه الخبر غير مؤكد، كأن أقول للشاك في نجاحه: نجحت؛ إهداراً مني لشكه كأني غير معترف به أي بهذا الشك.

٧ ـ تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة العالم به، وهو هو الضرب السابق بمثاله ولكنه احتمال عقلي مخالف له.

٨ ـ تنزيل الشاك في مضمون الخبر منزلة المنكر له. مثل أن أقول للشاك في نجاحه: إنك قد نجحت. أو إنك والله قد نجحت.

٩ ـ تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به، كأن أقول للمسلم المنكر وجوب الزكاة: الزكاة واجبة.

قلنا. ولم يكن قولنا مطلوباً أولاً، ولما قلنا. لم نؤكد ثانياً.

١٠ ـ تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه. مثل أن أقول لمخاطبي السابق: الزكاة واجبة.

قلنا. وكان واجباً أن نقول، لكنا حين قلنا لم نراع أن مخاطبنا منكر. وهو هو الضرب السابق في الظاهر، لكنه احتمال عقلي مخالف له.

١١ ـ تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة الشاك فيه، كأن أقول لمنكر فضل العلم: إن العلم ينفع صاحبه؛ تخففاً من كثافة المؤكدات من جهة، واستهانة بإنكار المنكر من جهة.

° ° °

ما سبق هو أكثر أضرب الخبر الجاري على خلاف ظاهر الحال دوراناً في الكلام.
ونتشرف الآن بإمعان النظر في القرآن الكريم لنرصد ما يفتح الله علينا به من هذه الأضرب، مُرتَّبةً على حسب ورودها في سوره.

سدد الله على طريق التوفيق خطانا وهدانا سواء السبيل آمين.

ـ ١ ـ

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» [الآية ٢ من سورة البقرة].

نفى الله الريب عن القرآن الكريم دون أن يؤكد ذلك، مع أن القرآن مستهدف منذ نزوله بالارتياب الشديد فيه من غير المؤمنين به، وقد فعل الله ذلك استناداً إلى أن القرآن من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا يصح الارتياب فيه. والآية الكريمة لهذا من تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة خالي الذهن منه، وهو الضرب العاشر من احتمالات الخبر الجاري على خلاف ظاهر حال المخاطب أو المخاطبين به والله أعلم.

ـ ٢ ـ

«وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون». [الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة البقرة].

° ° °

هذه الآيات وما قبلها وما بعدها في سياقها من سورة البقرة تدور حول المنافقين الذين يعيثون في الأرض فساداً حتى إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون، أي لسنا مفسدين، وهذا منهم حمق أيّ حمق، ولاعجب؛ فهم لا يشعرون أنهم مفسدون، وإذا كانوا لا يشعرون أنهم مفسدون فإن مقتضى ذلك هو الإخبار عنهم بالضرب الابتدائي بأن يقال: هم مفسدون، أو نحوه، لكن الله تعالى نزلهم منزلة المنكرين، بل عتاة المنكرين فقال: «ألا إنهم هم المفسدون» هكذا بخمسة مؤكدات هي [ألا] التنبيهية، و(إنَّ) المقرِّرة، وتعريف الخبر، وضمير الفصل (هم) و(اسمية الجملة). وفي تكثيف التوكيد بهذه الدرجة، وإلى هذا الحد إيماء إلى غباء المنافقين، وتشنيع عليهم بفقدهم القدرة على التمييز بين الفساد: وهو خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به، والصلاح: وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة[٨].

* * *

وما قلناه في «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، نقوله في: «ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون».

وهما من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٣ -

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون» [الآية ١٤ من سورة البقرة].

صورتْ الآية الكريمة لعب المنافقين على الحبلين، وترددهم بين اليهودية والإسلام: إذا لقوا المؤمنين ساقوا إليهم الكلام مرسلاً دون توكيد ما، لا شيء إلا الإخبار بالحدث (آمنا) وهو الضرب الابتدائي في مجال مطابقة الكلام لمقتضى ظاهر الحال.

وإذا خلوا إلى كبرائهم ورجال دينهم سلكوا بهم أو إليهم الضرب الطلبي فقالوا لهم: (إنا معكم).

والسبب في عدولهم عن الضرب الابتدائي إلى الضرب الطلبي أنهم ـ لجبنهم ـ قد استشعروا أن من يخاطبونهم شاكون في أمرهم، وسيكونون مترددين في تصديقهم لو قالوا لهم (نحن معكم) فنزلوهم منزلة الشاكين وقالوا لهم (إنا معكم) وهو الضرب الرابع من الاحتمالات السابقة.

وقولهم بعد ذلك: «إنما نحن مستهزئون».

إما أن نجعله توكيداً فوق توكيد، ويتحول الضرب به من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة.

وإما أن نجعله استئناف كلام، وكأن الشياطين عقبوا على قول المنافقين (إنا معكم) بقولهم لهم: فما بالكم إن صح أنكم معنا تقولون للمؤمنين: آمنا؟ فقالوا: (إنما نحن مستهزئون).

و(إنما نحن مستهزئون) على هذا التقدير تكون من مجيء الخبر على حسب مقتضى ظاهر حال المخاطبين، وهو تكذيب رؤساء المنافقين قول المنافقين (إنا معكم) والله أعلم.

- ٤ -

«أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون. واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»

[الآيتان ٤٤، ٤٥ من سورة البقرة]

الخطاب في الآيتين الكريمتين موجه إلى أحبار اليهود الذين كانوا يأمرون أقاربهم وخاصتهم بالإيمان بمحمد ولا يفعلون هم ذلك تشبثاً بسلطاتهم الدينية، وحرصاً على منافعهم الدنيوية، وقد وبخهم الله على ذلك بقوله: «أفلا تعقلون».

أي أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه؟!!! لكأنكم مسلوبو العقول.

ولما كان هذا التوبيخ من الله للأحبار يمثل جانب الشدة معهم والتقريع لهم، فإن الوجه الآخر للتربية الربانية وهو وجه الرفق بهم والنصح لهم، قد تمثل في الآية الثانية «واستعينوا بالصبر والصلاة» أي بالجمع بينهما بأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة مختملين مشاقها وما يجب فيها من إخلاص القلب ودفع الوساوس ومراعاة الأدب مع الخشية والخشوع واستحضار أن الصلاة إنما هي قيام بين يدي الله.

ولأن الصلاة بالكيفية السابقة أمر صعب وهو ما لم يكن في الحسبان عقب سبحانه بقوله: «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين».

هكذا بتنزيل الخالين من مضمون الخبر منزلة المنكرين له، وهو الضرب الخامس من المجال الثاني؛ إيحاءً بأن من يتهيأ للصلاة يجب عليه أن يستحضر الله وإغراءً للمصلين بأن يكونوا من الخاشعين.

وما كان هذا التوجيه بشقيه ليتحقق لو أن الله سبحانه ساق الخبر للأحبار أصلاً، ولغيرهم فرعاً على مقتضى ظاهر حالهم وهو خلو أذهانهم من صعوبة الالتزام بإتقان الصلاة.

- ٥ -

«من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين»

[الآية ٩٨ من سورة البقرة]

نقف من الآية الكريمة عند جملة «فإن الله عدو للكافرين»؛ لأنها من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من المجال الثاني.

ونوضح ذلك بالآتي:

ظاهر الحال يقتضي أن يقال: من عادى الله ورسله وملائكته وبخاصة جبريل وميكال عاداه الله، لكن لأن سياق الآية هو التهديد الشديد روعي فيها ما يأتي:

أ ـ مجيئها اسمية لتفيد الثبوت والثبوت تأكيد.

ب ـ توكيدها بإنَّ لتكتمل للهجة التهديد حدتها ولتصل فاعليتها إلى أقصى المدى في تخويف الكافرين.

جـ ـ وضع الظاهر موضع الضمير مرتين:

مرة في «فإن الله» بدلاً من (فإنه)؛ تهويلاً عليهم بلفظ الجلالة.

ومرة في «عدو للكافرين» بدلاً من (عدو لهم)؛ إيماءً إلى أنهم بسبب عداوتهم لله وللملائكته ولرسله صاروا كافرين، والله أعلم.

- ٦ -

«ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين»
[الآية ١٤٥ من سورة البقرة].

الخطاب في الآية الكريمة موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ، والمتكلم إنما هو الله سبحانه وتعالى يحيطه علماً بأن اليهود والنصارى ميئوس من إيمانهم مهما بذل في ذلك من جهد ومهما قدم لهم من دلائل، بل لو قدم لهم كل المعجزات وكل الدلائل.

وغير وارد بالدرجة نفسها أن يتبع محمد ﷺ دين اليهود أو دين النصارى.

يتمثل هذا أو ذاك في التوجه أو عدم التوجه إلى الكعبة، واتخاذها أو عدم اتخاذها قبلة ،ويمضي فيكرس اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم حتى إن بعضهم لا ولن يتبع قبلة بعض.

* * *

ما مضى تم الإخبار به في هدوء، لم يجلب الله على رسوله فيه بتهديد أو وعيد، فلم يكن محمد قبله يعلم أن الطريق إلى هداية أهل الكتاب مسدود، ولا أن بينه وبينهم حائطاً يتحطم عليه أمله في أن يتجه الجميع نحو قبلة واحدة صدوراً عن دين واحد هو الإسلام.

أما وقد بصَّر الله رسوله وأبان له حقيقة الموقف، فليس له بعد ذلك عذر إذا عاد إلى قبلته القديمة كما تمنوا عليه قائلين له: «لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره»[٩].

إلى هنا والإشارة خضراء، لكن ها هي ذات تتحول إلى صفراء، وعلى ضوئها الباهت وفي وقتها الضيق يقول الله لرسوله: «ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم».

ويْ. إنه النذير والتحذير، وها هو ذا الضوء الأصفر يتلاشى ليحل محله الضوء الأحمر.

تأزم الموقف إذن، ولم يعد يحتمل المجازفة، فليكن هذا الحكم الجازم الصارم الذي يشق على مؤمن عاص، فما الظن بمؤمن منيب، بل ما الظن برسول كريم هو محمد خاتم الأنبياء والمرسلين؟!!!

لكنه الخطر الداهم لو قطعت الإشارة الحمراء. إنه الصدم والحطم، وما ذلك بشيء ذي بال في جانب قول الله لرسوله، أو من هم وراء رسوله مما يوحى به تلهب الموقف:

«إنك إذاً لمن الظالمين».

ولما كان الشهيد سيد قطب بصدد ما نحن فيه سأل:

لماذا هذا الجد الصارم في خطاب الله لرسوله؟

وأجاب:

«إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه، ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم وبهذه المواجهة والتحذير (إنك إذاً لمن الظالمين). إن الطريق واضح والصراط مستقيم، فإما العلم الذي جاء من عند الله، وإما الهوى في كل ما عداه، وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين في غمرة الدسائس اليهودية، وحملة التضليل الماكرة تستدعي هذه الشدة في التحذير وهذا الجزم في التعبير»[١٠].

انتهى كلام الأستاذ سيد قطب، وهو يسمح بأن يكون المخاطب في (إنك إذاً لمن الظالمين) هكذا بالضرب الإنكاري إنما هو الرسول ﷺ وحده، أو بعض المسلمين وحدهم، أو هما معاً في موقف أمل تفتر فيه حركة العقل تحت تأثير صور زاهية وأحلام وردية بواقع ديني متفرد هو انتظام الناس في صف الإسلام.

تلك الصور وهذه الأحلام جعلت محمداً ﷺ أو بعض أصحابه أو هما معاً يبدون وكأنهم غير مدركين خطورة ما يعرضه أهل الكتاب عليهم، وما يترتب عليه لو قبلوه من إضعاف لموقفهم، ومن ظلم لدينهم وأنفسهم.

وتصعيداً من الله لحالتهم تلك خاطبهم خطاب المنكرين للخطر المحيط بهم لو تركوا كعبتهم، وعاودوا التوجه إلى بيت المقدس.

وتكون الآية الكريمة مثالاً لتحول الضرب الابتدائي إلى الضرب الإنكاري، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٧ -

«وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟ قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم»

[الآية ٢٤٧ من سورة البقرة]

الآية الكريمة واحدة من آيات كثيرة وردت في سياقها وفي القرآن الكريم كله تحكي قصصاً مختلفة عن بني إسرائيل وتعطي مواقفهم مع الله سبحانه وتعالى ومع أنبيائهم وملوكهم موافقين ومخالفين، طائعين وعاصين.

وآيتنا والآية (٢٤٦) قبلها تقولان: إنهم طلبوا من نبي لهم اسمه شمعون أن يُنَصِّبَ عليهم ملكاً يحاربون بقيادته جالوت وجنوده، ولحنكة شمعون وخبرته بهم أبطأ في الاستجابة لهم ولما ألحوا عليه قال: أخشى إن كتب الله عليكم القتال ألاّ تقاتلوا، فردوا: «وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا»؟! وحين اطمأن شمعون إلى أنهم جادون أخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً يحكمهم ويقودهم في الحروب، لكنهم لم يرحبوا بهذا الخبر بل صدموا به وراحوا يتساءلون وهم متعجبون ومنكرون: أنّى يكون له الملك علينا؟ ولو تأملنا لوجدنا أنهم لم يصدروا في تساؤلهم عن فراغ، ولم يحتجوا على طالوت من غير سبب بل إن لديهم لذلك لسببين وجيهين في رأيهم ومن وجهة نظرهم:

أحدهما مرئيّ هو أن طالوت لم يؤت سعة من المال.

والآخر خفيّ نفهمه من قولهم «ونحن أحق بالملك منه»؛ فهو متضمن أن طالوت ليس من أبناء الملوك، وفيهم من هو من أبناء الملوك.

وانطلاقاً من هذين السببين الوجيهين في رأيهم ومن وجهة نظرهم أصدروا حكمهم المرسل (ونحن أحق بالملك منه) هكذا دون تأكيد ما. فلماذا؟ أجل لماذا؟!! وإنهم ليعلمون وهم يجادلون نبيهم شمعون أنه مع من اختاره الله لهم، وتلك حججه تنهال على رؤوسهم كالمطارق حجة في إثر حجة. شمعون الذي هو من نسل هارون أي الفصيح بالوراثة يحاجهم ويجادلهم فيكتفون وهم يثبتون أحقيتهم بالملك من طالوت بإلقاء الخبر عليه ابتدائياً غير مؤكد!! إنه لأمر محير، والمسألة لا تخرج عن احتمالين:

أولهما: أنهم ليسوا على مستوى الموقف قولاً وفعلاً. ومستحيل أن يكون هذا هو رأيهم في أنفسهم.

والثاني: أنهم أجروا خبرهم على خلاف ظاهر حال شمعون، وهذا الاحتمال هو المعقول، وبه كانت جملة (ونحن أحق بالملك منه) مما نحن فيه أي من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم.

لقد كان المتوقع أن يقولوا: «إننا لأحق بالملك منه» أو «ورب موسى وهارون إننا لأحق بالملك من طالوت» لكنهم جاءوا بالخبر خافتا مصمتا كما نرى. مرة أخرى لماذا؟

وبسبيل من الإجابة عن هذا السؤال الملح نعترف بأنه على الرغم من أن الأدلة على أحقية طالوت بالملك أدلة مادية ومعنوية، وهي بهذه الازدواجية كانت في حاجة إلى أن تُنقض وتنقض وتنقض، وهي مرات من النقض تتواءم وتتلاءم مع ما عند شمعون من خلفية عن الموقف برمته وإنها لخلفية رافضة ومناهضة ثم هي مركبة:

بعضها يتعلق بالمعارضين لطالوت وهو أنهم أقل منه في الجسم والعلم.

وبعضها يتعلق بطالوت. وما يتعلق بطالوت أمور منها:

أ ـ أن الله اصطفاه عليهم أي اختاره من بينهم، وإذا كان الله قد اختاره من بينهم فلا شك أنه يفضلهم.

ب ـ أن الله زاده بسطة في العلم والجسم.

جـ ـ أن الله يؤتي ملكه من يشاء، وقد شاء الله طالوت ولم يشأ غيره.

وبهذه الخلفية المكثفة عند شمعون ينتفي انتفاءً تاماً أن يكون المجادلون له من وجهة نظره وفي اعتقاده أحق بالملك من طالوت، واستلال هذا الاعتقاد فيهم يقتضيهم ـ محواً له وإحلالاً لضده محله ـ أن يؤكدوا أحقيتهم بالملك ما شاء الله من التأكيد. لكنهم لم يؤكدوا، وعلام التأكيد وهم في غير حاجة إليه؟!

إن أحقيتهم بالملك في اعتقادهم هم ومن وجهة نظرهم هم واضحة وضوح النهار الذي لا يحتاج إلى دليل. المسألة بالنسبة إليهم منتهية، وخارج نطاق الأخذ والرد، وقد راعوا في تقرير أحقيتهم بالملك حقيقة أمرهم هم وهي الحقيقة المطلقة عندهم لا حقيقة حال شمعون ولا ظاهر حاله.

ومن يدري فلعلهم تركوا لسان حالهم يقول عنهم، ولما خافوا ألا يُسمع له تفضلوا فقالوا دون تأكيد ما، وبحسبهم أنهم قالوا.

ومرة أخرى من يدري؟ فلعلهم كانوا يرون أن التعامل مع الواقع القابع في العقول أقوى وأصدق من التعامل مع الواقع الظاهر للعيون، وفي هذا تكمن بلاغة وأفضلية مجيء الخبر مخالفاً لظاهر حال المخاطبين به على وجه العموم.

والآية الكريمة لهذا من تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به أو خالي الذهن منه أي من جعل

الضرب الإنكاري ابتدائياً، وهما الاحتمالان التاسع والعاشر فيما سبق والله أعلم.

ـ ٨ ـ

«فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» [الآية ٣٦ من سورة آل عمران]

تضمنت الآية الكريمة فصلاً من قصة مريم.

توقعت أمها حين حملت بها أن ما في بطنها ولد، فنذرته للخدمة في بيت المقدس، ولمّا كان الوفاء بالنذر مشروطاً بأن يكون المولود ذكراً، فقد أصيبت أم مريم بالإحباط حين ولدت أنثى ولم تملك نفسها أن قالت: «رب إني وضعتها أنثى»، ولأن الله أعلم بما وضعت، فقد كان مقتضى ظاهر الحال ألا تقول أصلاً، وإن قالت فبالضرب الابتدائي لا الطلبي. تقول مثلاً: (أنا وضعت أنثى) أو (المولود أنثى).

فلماذا عدلت عن ذلك إلى «إني وضعتها أنثى»؟

يمكن القول بأن أم مريم لم تتوجه بخبرها إلى الله تعالى بل إلى نفسها.

وعن الجملة الإنشائية (ربِّ)؛ فقد أتت بها لتشهد الله على بثها، ولتريه أسفها على ضياع أملها.

ونمضي في استبطان زوجة عمران فنذهب إلى أنها إنما قالت ذلك على سبيل الاعتذار إلى الله عن عدم وفائها بنذرها، لأن مولودها أنثى، والأنثى في ذهنها وفي زمنها لم تكن صالحة للمهمة التي نوت نوطها بحملها لو جاء ولداً.

وسواء كان خبرها موجهاً إلى الله تعالى أو إلى نفسها فإنه من تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المتردد في قبوله وهو الضرب الثاني من مجيء الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال في القرآن الكريم.

* * *

وما قلناه في (إني وضعتها أنثى) نقوله في: «وإني سميتها مريم» وفي «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» والله أعلم.

ـ ٩ ـ

«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيهاً في الدنيا

والآخرة ومن المقربين» [الآية ٤٥ من سورة آل عمران].

معنى «إن الله يبشرك بكلمة منه» أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب.

وظاهر الحال في الآية الكريمة يقتضي أن تأتي بدون (إنّ) لأن مريم كانت خالية الذهن مما بشرت به، وهو الضرب الابتدائي، لكن عُدل عنه إلى الضرب الطلبي لاعتبارات خاصة منها:

(أ) نزول الملائكة على مريم؛ فالملائكة لا تنزل في الأمور السهلة.

(ب) استقطاب الملائكة لها بندائهم الهادر عليها، نفهم ذلك من (يا) الدالة بأصل وضعها على نداء البعيد، فما كانت مريم خارج دائرة الصوت وقت مناداتهم عليها بل في بؤرتها.

ها هي ذات بين أيدي الملائكة وها هم أولاء يصبون اسمها في أذنيها.

(جـ) ما آل إليه حال مريم نتيجة الأمرين السابقين من قلق نفسي وتوتر عصبي.

(د) الخبر الملقى عليها مظنة الشك فيه للإبغات به ولذاته، ولا عجب؛ فهو من نوع «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً».

ومجيئه طلبياً لا إنكارياً دليل على مراعاة الله لظروف مريم من جهة، وعلى حسن ظنه بها من جهة والله أعلم.

- ١٠ -

«ويعلمه الكتاب والحكمة والإنجيل. ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» [الآيتان ٤٨، ٤٩ من سورة آل عمران].

* * *

(ورسولاً): أي ويجعل الله عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، وهو عطف على (ويعلمه الكتاب) في صدر الآية السابقة.

والشاهد هو الخبر المتمثل في قول الله تعالى «إن في ذلك لآية لكم».

فقد نزل الله المقرين به منزلة المنكرين له فأكده بثلاثة مؤكدات هي: (إنَّ) و(اللام)، و(القصر) بتقديم ما حقه التأخير، وهو الضرب الثالث من المجال الثاني فيما سبق.

والسبب البلاغي في ذلك أن الخبر مسبوق بأربعة أدلة على صدق رسالة عيسى، ولما كانت هذه الأدلة بالغة القوة، ناسب أن يعقبها خبر في مثل قوتها طرداً للباب على وتيرة واحدة هذا أولاً.

أما ثانياً: فهو أنه إذا كان اليهود لا ينكرون معجزات عيسى قولاً، فإنهم لم يرتبوا على عدم إنكارهم هذه المعجزات ما كان منتظراً منهم وهو الإيمان بعيسى فعلاً.

وقد جعل الله هذا السلوك منهم بمثابة إنكارهم رسالة عيسى قولاً وفعلاً معاً والله أعلم.

ـ ١١ ـ

«ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» [الآية ١٧٨ من سورة آل عمران].

الإملاء للكافرين هو تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطوال ليرعى كيف شاء، أو هو إطالة أعمارهم[١١].

والمعنى الكلي للآية هو: لا يظن الكافرون أن إطالتنا أعمارهم مع إمهالنا لهم بدون عقاب خير لهم، فنحن بتفسيح المدة وترك المعاجلة بالعقوبة نريد أن تزداد ذنوبهم ليزداد تبعاً لذلك عقابهم، وكان مقتضى ظاهر الحال أن يؤكد الله ما توعدهم به من العذاب المهين أشد توكيد، ليمضي السياق في مساره المحلق بلا الناهية وبنون التوكيد الثقيلة وبأنَّ المؤكدة وبالقصر وبزيادة الإثم، لكنه سبحانه نزل به عما كان متوقعاً له فقال: «ولهم عذاب مهين» هكذا بمؤكد واحد هو القصر بتقديم الخبر على المبتدأ علماً بأنهم ينكرون أنهم سيعذبون ذهاباً منهم إلى أنهم لو كانوا سيعذبون ما أملى الله لهم.

والسر البلاغي في تحول السياق من الشدة إلى اللين أن الله تعالى قد وكل الكافرين إلى عقولهم، فلو فكروا لعلموا دون تأكيد ما أن عذاباً مهيناً ينتظرهم جزاء كفرهم.

وبهذا يكون الله قد نزل من ينكر مضمون الخبر منزلة الشاك فيه وهو الضرب الحادي عشر من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ١٢ ـ

«وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم

سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم. وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم»

[الآيات ١٠١ ـ ١٠٣ من سورة التوبة]

في الآيات الثلاث يخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعامة ومحمداً ﷺ بخاصة أن من الأعراب المحيطين بالمدينة ومن أهل المدينة نفسها منافقين مردوا على النفاق أي لجوافيه وثبتوا عليه. هؤلاء سيعذبهم الله مرتين أي نوعين من العذاب في الدنيا ثم يردون إلى عذاب عظيم في الآخرة.

وعدا المنافقين خارج المدينة وداخلها يوجد المؤمنون الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لانفاقاً بل كسلاً ثم ندموا على ما فعلوا، يقول الله في شأنهم: «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول فيما كان من الغزوات قبل تبوك بتخلفهم عن تبوك.

هؤلاء «عسى الله أن يتوب عليهم».

قال الطبري: «عسى من الله واجب ومعناه: سيتوب الله عليهم ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي».

وقد علل سيد قطب قول الطبري «إن عسى من الله واجب» بأنه «رجاء من يملك الرجاء سبحانه»[١٢] وكأن المخاطبين بما سبق وهم المسلمون والرسول حالياً والمسلمون والمسلمات مستقبلاً، أقول: كأن هؤلاء وأولئك حاك في صدورهم أو سيحيك ما جعل الله يتزلهم منزلة المتسائلين عن السر في أن يتوب الله على المتخلفين وهم مذنبون، فأجاب عن التساؤل المفترض بقوله: «إن الله غفور رحيم» هكذا بمؤكدين هما (إن) و(اسمية الجملة).

وبهذا التأكيد كان الإخبار بأن الله غفور رحيم مما جاء على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين لأن مقتضى ظاهر حالهم هو عدم التأكيد لهم.

وتصفية لموقف المتخلفين عن غزوة تبوك من أية شائبة، ورغبة في أن تعود صحفهم إلى سابق بياضها أمر الله رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم كي يلحقوا بإخوانهم الذين حضروا تبوك.

قال ابن جرير: «حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم، فأتوا بها رسول الله ﷺ فقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصلِّ علينا، يقولون: استغفر لنا وطهرنا فقال رسول الله ﷺ: لا آخذ منها شيئاً حتى أُومر، فأنزل الله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم»، يقول: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا، فلما نزلت الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق به عنهم»[١٣]

وكما نرى لم يقصر الله سبحانه وتعالى طلبه من محمد ﷺ على أخذ بعض أموالهم، بل أضاف إليه الصلاة عليهم.

وإذا كان سبب النزول ظرفاً للطلب الأول، فإن الأمر بالصلاة زائد على هذا الظرف وغير داخل فيه لسبب واضح هو أنه لم يكن وارداً على ذهن الرسول ﷺ، وبناءً عليه لم يكن الرسول ﷺ متوقعاً له، ومن شأن هذا السبب بشقيه أن يجعل الرسول ﷺ غير متوائم نفسياً مع أمر الله له بالصلاة عليهم.

وليتم هذا التوائم جيء بالمؤكدين (إن) و(اسمية الجملة) في «إن صلاتك سكن لهم» كما جيء بهما في «إن الله غفور ورحيم» وهما لذلك من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المتردد فيه وهو الاحتمال الرابع من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ١٣ ـ

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم»

[الآيات ٦٢ ـ ٦٤ من سورة يونس]

الولي بنص الآية الثانية هو المؤمن التقي، قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم وما أعمالهم، قال: هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[١٤].

ونقف من الآيات الثلاث وقفتين: الأولى مع الآية الأولى، والثانية مع صدر الآية الثالثة أما الآية الأولى فهي خبر ضربة إنكاري؛ لأنه مؤكد بثلاثة مؤكدات هي (ألا) الاستفتاحية و(إنَّ) و(استغراق النفي بلا المكررة)، لكأن المخاطبين بهذا الخبر في غاية الإنكار له وفي منتهى الرفض لمضمونه، علماً بأنه لذاته، ولخلوِّ أذاهنهم من مضمونه قبل قوله، كان خليقاً أن يُساق مرسلاً كأن يُقال: أولياء الله لا يخافون ولا يحزنون. أو: لن ينال الخوف ولا الحزن أولياء الله. فلما ذا عُدل عن ذلك إلى الضرب الإنكاري؟ نجيب بأن المسألة مسألة مصير، ومن تأصيلها أنها نتيجة للإيمان وللتقوى.

أجل: إنهما ذكرا بعدها، لكن على أنهما سببها والمسوغ لها، ولا ننسى أن إضافة الأولياء إلى الله تستدعي أسلوباً يحدد هويتهم ويؤكد خصوصيتهم وينسجم في النهاية مع ما قرره الله لهم من دعة وأمن، ومن فرح وسرور.

والآية لهذا من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر أو العالم به منزلة منكره، وهي لذلك تتردد بين الضربين الثالث والخامس من الاحتمالات السابقة.

وأما صدر الآية الثالثة (لهم البشرى) فلفخامته وعظمته، ولسعة رقعة البشارة به في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قد أوشك على تجاوز المتوقع، وصار مظنة ألاَّ يُصدق.

ولأنه قد أوشك على تجاوز المتوقع، وصار مظنة ألاَّ يُصدق، كنا ننتظر أن يأتي مؤكداً بأكثر من مؤكد، لكنه أتى شبه مرسل.

ويمكن القول لهذا بأن التصور الوهلي لنموذجنا المزدوج قد جاء معكوساً هكذا:

ما كان متوقعاً أن يأتي مرسلاً جاء مؤكداً بثلاثة مؤكدات في الآية الأولى، وما كان متوقعاً أن يأتي مكتف التوكيد جاء شبه مرسل في الآية الثالثة، وإذا كنا قد عللنا الشق الأول، فإن من تعليل الشق الثاني أن نقول: إن الله بملكه وملكوته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يشق عليه أمرٌ ما ـ حاشاه ـ من أمور الدنيا أو الآخرة، وبحسبه في وعده لأوليائه أن يقول: «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» هكذا بأسلوب القصر وكفى؛ اعتماداً على ما هو مستقر في أعماق المؤمنين من أن الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، وهو الضرب الحادي عشر من الاحتمالات السابقة، والله أعلم.

ـ ١٤ ـ

«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا؛ إنهم مغرقون» [الآية ٣٧ من سورة هود].

«إنهم مغرقون» في الآية الكريمة خبر أتى على خلاف ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب به وهو نوح عليه السلام؛ لأنه كان خالي الذهن من مضمون الخبر، لكن لما نهاه الله عن أن يتشفع لديه لقومه، توجَّس خيفة وتردد حدسه بين نزول العذاب بهم ونجاتهم؛ وقد كان هذا التردد في جوانية نوح سبباً في أن يلقي الله عليه الخبر مؤكداً بمؤكدين هما (إنَّ) و(اسمية الجملة) وصولاً به إلى استقراره النفسي، وإشباعاً لغريزة حب الاستطلاع عنده.

وبهذا يكون خالي الذهن من مضمون الخبر قد نزل منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٥ -

«وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم»

[الآية ٥٣ من سورة يوسف]

الآية الكريمة مما أجراه الله على لسان يوسف عليه السلام، وجملة «إن النفس لأمارة بالسوء» خبر جار على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين به.

بعد إدلال يوسف بعفته في قوله: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب»، وبعد توجهه إلى ما يشبه التشفي من خصمه بقوله: «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» قال: «وما أبرئ نفس».

ولما كان هذا القول مظنة إنكارٍ ممن يسمعه لأنه هو الطرف الآخر لما قبله، عقب عليه بقوله: «إن النفس لأمارة بالسوء» هكذا بأربعة مؤكدات هي (إنَّ) و(اللام) و(صيغة المبالغة) و(اسمية الجملة) والخطاب بعد موجه إلى خالي الذهن منه، أي إلى من لم يكن يعلمه، فهو من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ١٦ -

«وإلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون»

[الآية ٢٢ من سورة النحل]

بعد أن تهكم الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية بالأصنام المعبودة من دونه قال: «وإلهكم إله

واحد » هكذا دون تأكيدٍ ما مع أن المخاطبين به هم المنكرون المستكبرون، ثم هم المتعجبون من أن محمداً ﷺ قد جعل الآلهة إلهاً واحداً.

وقد صدر الله سبحانه في هذه الآية عما صدر عنه في الآية الثانية من سورة البقرة فالموقف هنا وهناك أوضح من أن يحتاج إلى دليل، والأمر فيهما ومعهما كما قال الشاعر:

ولـــيس يصح في الأذهـــان شيء إذا احـــتـــاج النهـــار إلى دلـــيـــل

والآيتان لهذا تنضويان تحت الضرب العاشر من أضرب الخبر الجارية على خلاف مقتضى الظاهر وهو الخاص بتنزيل منكر الخبر منزلة خالي الذهن منه، متى كان عنده أو حوله ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره دون تدخل بلاغي والله أعلم.

- ١٧ -

«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً»

[الآية ٢٩ من سورة الكهف]

الآية الكريمة مما نزل في عيينة بن حصن ورفاقه، أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي وعليه شملة صوف قد عرق فيها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟!! ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس، قالوا: فَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فلما نزلت الآية التي تسبق آيتنا وهي: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا».

أقول: لما نزلت هذه الآية والآية التي معنا وآيتان بعدهما خرج رسول الله ﷺ يلتمس الفقراء، فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمدلله الذي جعل من أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم.

والشاهد في آيتنا هو قول الله تعالى: «إنا اعتدنا للظالمين ناراً، فهو خبر جارٍ على خلاف مقتضى ظاهر الحال؛ لأنه إن كان موجهاً إلى رسول الله فرسول الله يعلم مسبقاً أن الله أعدّ للظالمين ناراً، وإن كان موجهاً إلى عيينة ورفاقه، فعيينة خالي الذهن من مضمون الخبر وكذلك رفاقه.

وسواء كان هذا أو ذاك، فظاهر الحال في هذا أو ذاك يقتضي إلقاء الخبر مرسلاً غير مؤكد لكن الله سبحانه وتعالى أتى به مؤكداً بمؤكد واحد؛ تنزيلاً للعالم بمضمون الخبر (محمد ﷺ) أو لخالي الذهن منه (عينية...) منزلة الشاك فيه. لماذا؟.

لأنه سبحانه قد قاله على سبيل التهديد والوعيد لعيينة وجماعته، ففي غير قليل من السخط وفي غير قليل من الغضب أمر الله رسوله أن ينهي إلى المتغطرسين من قومه أن ما جاء به من الدين إنما هو الحق من ربهم خالق الفقراء وخالقهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لكن دون تشرط، ولم يكن ملائماً للسخط كما لم يكن ملائماً للغضب أن يجيء التهديد والوعيد دون تأكيد. والآية قبل وبعد تتردد بين الاحتمالين الثاني والرابع من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ١٨ ـ

«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم»

[الآية (١) من سورة الحج]

الآية الكريمة من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة المنكر له.

والسبب في ذلك أن الله تعالى بدأ فأمر الناس ـ كل الناس ـ بتقواه، ولما كان كثير منهم يعصونه أو ينتظر منهم ذلك، فقد ثنى سبحانه بالجملة الخبرية المهولة بما اشتملت عليه وأبرزته وهو أن زلزلة الساعة شيء عظيم، وناسب هذا النسق الجاد الصارم أن تسور الجملة بمؤكدين يرسخان معناها ويجعلان احتمال التراجع عن التهديد بها أمراً غير وارد والله أعلم.

ـ ١٩ ـ

«وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور»

[الآية ٦٦ من سورة الحج]

يكثر في سورة الحج الضرب الإنكاري الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطبين به كقوله سبحانه قبل الآية ٦٦:

«وإن الله على نصرهم لقدير» [من الآية ٣٩].
«إن الله لقوي عزيز» [من الآية ٤٠].

«وإن الظالمين لفي شقاق بعيد» [من الآية ٥٣].
«وإن الله لهو خير الرازقين» [من الآية ٥٨].
«وإن الله لعليم حليم» [من الآية ٥٩].
«إن الله لعفو غفور» [من الآية ٦٠].
«وأن الله سميع بصير» [من الآية ٦١].
«وأن الله هو العلي الكبير» [من الآية ٦٢].
«وإن الله لهو الغني الحميد» [من الآية ٦٤].
«إن الله بالناس لرؤوف رحيم» [من الآية ٦٥].

«وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور».
والآية الأخيرة هي موضوع هذه الفقرة.

لقد أوجز سبحانه وتعالى قصة الحياة والموت والبعث أبلغ إيجاز وأوردها في ثلاث كلمات كل كلمة منها عالم قائم بذاته ومرحلة ممتدة في الزمان والمكان بمقدار الزمان والمكان.

أحياكم أعماركم وأعاشكم إياها، ثم يميتكم ويبقيكم في قبوركم إلى أن تقوم الساعة للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب.

والمراحل تمضي متراخية، فواصلها (ثم)، والمخاطبون بها لا يستشعرونها، ولأنهم لا يستشعرونها فإنهم لا يشكرون الله عليها، لكأنهم يجحدونها.

ومن هنا كان تصعيد الخبر من الضرب الابتدائي إلى الضرب الإنكاري؛ تنزيلاً لخالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره.

وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٠ -

«ثم إنكم بعد ذلك لميتون» [الآية ١٥ من سورة المؤمنون].

بعد أن سرد الله تعالى مراحل خلقنا وأطوار نشأتنا عطف على ذلك بقوله «ثم إنكم بعد ذلك لميتون» هكذا بثلاثة مؤكدات هي (إن) و(اللام) و(اسمية الجملة)، مع أن الموت مسلم به من كل

الناس، لا ينكره أحد ولا يماري فيه، وكيف ينكره أو يماري فيه وهو يعانيه من حوله وفي أهله وذات يوم في نفسه.

لكن الناس مع ذلك ينسون أنهم سيموتون، فيتصرفون كأنهم مخلدون، ولهذا كثف الله لهم التوكيد، وهذا التكثيف من قبيل تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له وهو الضرب الثالث من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢١ -

«ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» [الآية ١٦ من سورة المؤمنون].

بعد الآية السابقة وهي آية الموت، أتت هذه الآية وهي آية البعث.

وإذا كان الموت مسلماً به من جميع الناس، فإن البعث ليس كذلك، وكان مقتضى هذا أن تؤكد آيته أكثر من تأكيد آية الموت، لكن الله تعالى قد رأى أن يكل الناس في هذه القضية الشائكة إلى عقولهم، عساها تخلخل إنكارهم وتحركه من نقطة النهاية إلى نقطة الوسط، وتفاءل لهم بذلك فخاطبهم وهم منكرون على أنهم شاكون.

والآية لهذا من الضرب الحادي عشر والله أعلم.

- ٢٢ -

«وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون» [الآية ٧٤ من سورة المؤمنون].

المتحدث عنهم في الآية الكريمة لا يؤمنون بالآخرة ولا يعترفون مع عدم إيمانهم بها أنهم ناكبون عن الصراط المستقيم، بل هم من وجهة نظرهم مستقيمون، وإذا كان هذا حالهم فقد كان يكفي الإخبار عنهم بالضرب الابتدائي، لكن الله سبحانه وتعالى نزلهم منزلة المنكرين، وتحدث عنهم بالضرب الإنكاري تمشياً مع السياق الذي بدأ بمخرقتهم والتشنيع عليهم بأنهم ينظرون إلى الرسول ﷺ وكأنه ينتظر أجراً منهم على موالاته دعوتهم إلى الإسلام (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين».

وهذا كمن يشنع على قوم بفساد الاعتقاد ثم يعقب على ما ذكره بقوله: «إن هؤلاء لضالون» علماً بأنهم يصدرون في معتقدهم عن موروث خاص بهم يجعلهم لا يشعرون بأنهم مخالفون إلى درجة الشذوذ، وهو من الضرب الخامس في الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٣ -

«قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور» [الآيتان ١، ٢ من سورة المجادلة].

غضب أوس بن الصامت على زوجته خولة بنت ثعلبة فظاهر منها أي قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، ولما كان هذا الظهار يحرِّم الزوجة على زوجها ولكنه لا يطلقها منه أي يدعها معلقة فقد تضررت خولة منه وأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله. إن أوساً ظاهر مني فما ترى؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه، لم تقتنع خولة، وأخذت تجادل الرسول وتقول له: ما طلقني يا رسول لكنه ظاهر مني، فيعيد الرسول ﷺ عليها قوله السابق، ولم تملك خولة أن قالت: اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة رضي الله عنها وكانت بحيث تسمع: فما برحت حتى نزل جبريل بالآيات من أول سورة المجادلة.

والشاهد في قوله تعالى «وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً» وفي قوله تعالى: «إن الله لعفو غفور»، ففيها من تنزيل خالي الذهن من مضمون الخبر منزلة منكره بتأكيده مرتين في الشاهد الأول وثلاث مرات في الشاهد الثاني؛ تهويلاً على المظاهرين، وردعاً لهم، وتمهيداً من الله سبحانه وتعالى لرفع الظلم الواقع على الزوجات المظاهر منهن بما سيقوله جل شأنه في الآيتين الثالثة والرابعة من السورة، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٤ -

«إن ربك لبالمرصاد» [الآية ١٤ من سورة الفجر].

بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة على هذه الآية من سورة الفجر ما فعل بعاد وثمود وفرعون، وهو أنه سبحانه قد صب عليهم سوط عذاب، عقَّب ـ جلت قدرته وعظمت حكمته ـ فقال محذراً ومنذراً «إن ربك لبالمرصاد» هكذا بمؤكدين هما (إنَّ) و(اللام) أي بالضرب الإنكاري، مع أن محمداً ﷺ وهو المخاطب بـ«ألم تركيف فعل ربك بعاد»، وبالكاف في «وصب عليهم ربك سوط عذاب» وفي «إن ربك لبالمرصاد». محمداً صلى الله عليه لا ينكر ولا يمكن أن ينكر أن ربه بالمرصاد لعاد وأمثال عاد إلى أبد الآباد.

ما السبب إذن في العدول بالخبر من الضرب الابتدائي وهو ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب إلى الضرب الإنكاري وهو ما اقتضاه خلاف هذا الظاهر؟ أقول:

لعل السبب في ذلك أن الخبر موجه بظاهر مبناه إلى محمد ﷺ، وبباطن معناه إلى كفار مكة الذين يسيرون في الطريق نفسه الذي سارت فيه ثمود وعاد وفرعون ذوالأوتاد، وبناءً عليه يكون المقصود بظاهر اللفظ في الخبر قد نزل منزلة المقصود بباطن المعنى فيه، وقد سهل ذلك وساعد عليه وأزال أو على الأقل خفف الحرج منه أن مضمون الخبر في ذاته مقصود به التهديد والوعيد جنباً إلى جنب مع الإخبار، بل قبل الإخبار، وأكاد أقول لا الإخبار، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

ـ ٢٥ ـ

«والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى».

[الآيات ١ ـ ٤ من سورة الليل]

الآيات الكريمة أسلوب قسم، وأسلوب القسم ينقسم إلى مقسم به ومقسم عليه، والشاهد هنا في المقسم عليه وهو: «إن سعيكم لشتى» أي مختلف، فضربه إنكاري، علماً بأن المخاطبين به لم يكونوا يعرفون قبل ذكره على أيِّ شيء يقسم الله بالليل والنهار وخلق الذكر والأنثى.

وكان ظاهر حالهم يقتضي أن يساق الخبر لهم مرسلاً غير مؤكد أي ابتدائياً، لكن الله سبحانه ساقه إنكارياً مؤكداً بثلاثة مؤكدات هي (إن) و(اللام) و(اسمية الجملة).

ونبحث عن السبب البلاغي في ذلك فنجد أمرين يمكن الوقوف عندهما:

الأمر الأول يتصل بالمقسم به، والمقسم به هنا تركيب كوني عجيب وحداته الليل والنهار وكل ما يدخل في حوزتهما أو ينبثق عنهما ذكراً كان أو أنثى.

والأمر الثاني يتصل بالمقسم عليه وهو تنوع سعي البشر ما بين خير له ثواب، وشر عليه عقاب.

ولم يكن منتظراً في زحمة عظمة المقسم به والمقسم عليه أن يأتي الخبر عادياً يقال أو يكتب بلا عناء، ويُسمع أو يُقرأ بلا تدبر، بل لا بدَّ له وفيه من مؤكدات تريثه ليصل إلىَ أعمق العمق من قارئه أو سامعه مهما كان موقفه منه أي بصرف النظر عن ذلك، وهذا ما كان، وهو الضرب الخامس من الاحتمالات السابقة والله أعلم.

- ٢٦ -

«كلا إن الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى. إن إلى ربك الرجعي»

[الآيات ٦ ـ ٨ من سورة العلق]

من الموضوعات التي عالجتها سورة [العلق] وتسمى أيضاً سورة [اقرأ] موضوع طغيان الإنسان حين يجد نفسه مستغنياً بالمال عن السؤال، والآيات التي معنا نص في هذا المعنى، فبدلاً من أن يشكر صاحب المال ربه الذي يسره له نجده قد نسيه وجحد فضله، لكأنه لم تعد له حاجة به أو إليه على حد قول الشاعر:

صلى وصام لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما

هذا التنكر لله بالسلوك المنحرف عن الله، وسّع الله معناه وجعله كذلك تنكراً بالجنان واللسان وبناءً عليه خاطب صاحبه خطاب غير المعترف بالبعث، وبما سيكون بعد البعث من لقاء الله للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب، وقد اقتضاه ذلك أن يؤكد له الخبر ـ وهو المقرُّ به ـ بمؤكدين هما : [إنَّ] و[القصر] بتقديم ما حقه التأخير: خبر إنَّ [إلى ربك] على اسمها [الرجعي] تنزيلاً للعالم بمضمون الخبر منزلة المنكر له، وهو الضرب الثالث من الاحتمالات السابقة، وتخريج الآية لهذا هو تخريج بيت حجلة بن فضلة.

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح

والله أعلم.

- ٢٧ -

«قل يأيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين»

[سورة الكافرون]

الآيات من ٢ ـ ٦ في هذه السورة ضربها ابتدائي، وهي تتردد بين طرفين وتدور حول محورين:

المحور الأول وهو هو الطرف الأول: أن النبي ﷺ لا ولن يعبد ما يعبد كفار مكة من الأصنام.

والمحور الثاني وهو هو الطرف الثاني: أن كفار مكة لا ولن يعبدوا ما يعبد محمد ﷺ وهو الله سبحانه وتعالى.

جاء إعلان المحور الأول الذي هو الطرف الأول في الآية الثانية من السورة الكريمة في صيغة جملة فعلية منفية [لا أعبد ما تعبدون] وتم توكيده لفظياً بالآية الرابعة من السورة الكريمة في صيغة جملة اسمية [ولا أنا عابد ما عبدتم] جمعاً بين التجدد المستفاد من الجملة الفعلية والثبوت المستفاد من الجملة الاسمية.

وجاء إعلان المحور الثاني الذي هو الطرف الثاني في الآية الثالثة من السورة الكريمة بصيغة الجملة الاسمية ابتداءً [ولا أنتم عابدون ما أعبد]، وتم توكيده هو هو توكيداً لفظياً محضاً بالآية الخامسة من السورة الكريمة [ولا أنتم عابدون ما أعبد] وهي الجملة الاسمية السابقة نفسها؛ إيماءً إلى أنهم قد ألغوا عقولهم من أول الأمر قولاً واحداً.

• • •

ونلتفت نحن يمنة إلى محمد ﷺ ودينه وموقفه.

ثم نلتفت يسرة إلى الكفار ودينهم وموقفهم، فلا نجد بارقة أمل في لقاء توهمه الكفار ممكناً بقبول محمد العرض الذي عرضوه عليه وهو سبب نزول هذه السورة قال المفسرون:

إن قريشاً طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً، فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه (١٥).

وما فعله محمد ﷺ هو الصواب أولاً، وإنه لمأمور به من الله ثانياً وحاشاه أن ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، علمه شديد القوى.

أجل فالشرك شرك والتوحيد توحيد ولن يلتقيا؛ لأنه لا يصح إلا الصحيح، والصحيح فيما نحن فيه هو الخروج من الشرك جملة والدخول في التوحيد جملة، أو كما قال سيد قطب «هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه، لا ترقيع ولا أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام أو ادعت هذا العنوان» (١٦).

• • •

بقيت القفلة أو الخاتمة متمثلة في الآية الأخيرة من السورة الكريمة (لكم دينكم ولي دين) وإذا

كانت الآيات السابقة قد أكدت نفسها داخل حدودها بتكررها كما هي جملة اسمية في حالة الكافرين، وبتكررها مراوحاً فيها بين الجملتين الفعلية والاسمية في حالة محمد ﷺ، فقد كان مقتضى ذلك، وبعبارة بلاغية أدق: مقتضى ظاهر الحال في ذلك أن تأتي الآية الأخيرة قاطعة للحوار المثار قبلها وأن تصعد إلى أفقها الذي توقعناه لها على سلم من التوكيد المكثف كأن تكون «إن لكم دينكم وإن لي ديني» أو «إن لكم لدينكم وإن لي لديني» ونحو ذلك، تكبيراً للصورة وإبرازاً لملامحها. لكن مقتضى ظاهر الحال شيء، ومقتضى الحال نفسه شيء آخر، ولعلنا هنا أمام موقف من مواقف الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فقد راعى الله سبحانه وتعالى الحال الحقيقي وهو حال المخاطبين المدرك بالبصيرة، ولم يراع ظاهر حالهم المدرك بالبصر وبعبارة مختصرة: تعامل مع الجوهر ولم يتعامل مع العرض.

ومن المسلم به دينياً وتربوياً أن اللين يعقب الشدة، وأن الرفق يعقب العنف وأن الكلام بعده السكوت.

وقد جاءت آية «لكم دينكم ولي دين» بمثابة النقطة توضع في آخر الكلام دلالة انتهاء وعلامة وقوف.

هو الختام إذن؛ بل هو الفطام، وعلى الكافرين أن يتدبروا أمرهم فيما بينهم وحدهم وليس فيما بينهم وبين المسلمين، وأن يقرروا: يكونون أولاً يكونون.

و(لكم دينكم ولي دين) بذلك أو لذلك من تحول الضرب الطلبي أو الإنكاري إلى الضرب الابتدائي، وعلى وجه التحديد من تنزيل الشاك في مضمون الخبر أو المنكر له منزلة العالم به أو خالي الذهن منه، وهو بذلك يتردد بين الاحتمالين السادس والسابع في حالة الشك، والتاسع والعاشر في حالة الإنكار.

والله أعلم.

- ٢٨ -

«سيصلي ناراً ذات لهب» [الآية رقم ٣ من سورة المسد].

مع أن السورة مبدوءة بجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ قصداً للدعاء على أبي لهب.

وإذا كان من المفسرين من ذهب إلى أن الجملة الثانية (وتب) خبرية لفظاً ومعنى بدليل قراءة ابن

مسعود لها (وقد تب) فإنني أرى أنها هي أيضاً خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ قصداً للدعاء على أبي لهب جملة، والمعنى على هذا: قطع الله يديه وقطعه.

ومع أنه يمكن لنا جعل (تبت يدا أبي لهب) مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، إلا أن الوقوف بالجملة عند الدعاء على اليدين وحدهما ممكن، ونبرره بأن يدي أبي لهب كانتا تصحبان بل تسبقان لسانه في إيذاء المصطفى ﷺ.

ولا ننسى أن اسم السورة يتردد بين أن يكون (المسد) و(اللهب) و(تبّ) وقد تحدثتْ عن عدو الله أبي لهب وامرأته حمالة الحطب بما لونزل على جبل وعقل الجبل لمات من الكمد.
مع ما سبق وعلى الرغم منه نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد جعل آيات السورة بعد الآية الأولى وربما بعد الجملة الأولى خبرية أولاً ومن الضرب الابتدائي ثانياً.

والسبب البلاغي في ذلك إنما هو تنزيل المنكر لمضمون الخبر منزلة العالم به أو خالي الذهن منه؛ فأبو لهب لو أعمل عقله فيما يتمرس به من إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم لعلم أن عمله هذا مما لا يمكن قبوله دينا أو عرفا، ولتأكد وحده دون تدخل من جانب صاحب الخبر وهو الله سبحانه من أنه سيصلى حتماً ناراً ذات لهب، والخبر لهذا مما يمكن التمثيل به للضربين التاسع والعاشر من الاحتمالات السابقة والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّمْ.

•••

• الهوامش •

١ ـ مفتاح العلوم ص ٧٨ الطبعة الأولى. مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.
٢ ـ الآيات: ١٣ ـ ١٦ من سورة يس.
٣ ـ مفتاح العلوم ص٨٢.
٤ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦م.
٥ ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح جـ٣ ص١٥ الطبعة الأولى ١٣١٨هـ.
٦ ـ مفتاح العلوم ص٨٢.
٧ ـ ديوان الفرزدق جـ٢ ص ص١٧٨ ـ ١٨١ طبعة سنة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

٨ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م جـ١ ص١٧٩، ولا تكون الجملة الاسمية مؤكدة على سبيل الاستقلال، بل بالتبعية لغيرها من المؤكدات الكثيرة الأخرى، فإن كان هناك مؤكد آخر، جُعلتْ اسمية الجملة من المؤكدات، وإلا فلا.
وإنما كانت اسمية الجملة مؤكدة، لأنها تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء، وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار، وهاتان الإفادتان مشروطتان بأن يكون خبرها مفرداً أو جملة اسمية، فإذا كان خبرها جملة فعلية أو شبه جملة لم تكن مؤكِّدة، وانظر [البلاغة الاصطلاحية] للدكتور عبده قلقيله ص: ١٣٦ ومابعدها طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٧م.

٩ ـ صفوة التفاسير جـ١ ص٨٩ ط (١) ١٤٠١هـ ١٩٨١م دار القرآن الكريم ـ بيروت.

١٠ ـ في ظلال القرآن ـ المجلد الأول ص١٢٩ ط (١٢) شركة دار العلم للطباعة والنشر بجدة ودار الشروق للطباعة والنشر بالقاهرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

١١ ـ الكشاف جـ١ ص٤٨٢.

١٢ ـ الطبري ١١/١٢ وصفوة التفاسير ٥/٤٥ وفي ظلال القرآن ٣/١٧٠٧هـ.

١٣ ـ في رواية أنهم ثلاثة وفي رواية أنهم سبعة وفي رواية أنهم عشرة وأن ثلاثة منهم لم يربطوا أنفسهم وانظر ص١٧٠٨ من «في ظلال القرآن» المجلد الثالث.

١٤ ـ الطبري ١١/١٣٢ وصفوة التفاسير ٥/٧٤.

١٥ ـ صفوة التفاسير جـ٢٠ ص١١٢.

١٦ ـ في ظلال القرآن ـ المجلد السادس ص٣٩٩٢.